found in translation: ali bader

ماكنة الصور المرعبة
علي بدر

شيء واحد في هذا العالم لا يهمني أبداً.
ما هو؟
-العالم نفسه!
هذا العالم يطاردني، حالة الطقس وعدد المؤخرات التي سوف تتشمس على شاطئ البحر. عدد السوتينات والكالسونات التي سوف تخلع وترمى على حافة السرير. أنواع علكة المراهقات في رفوف الدليز. حبوب المخدرات. حبوب منع الحمل. حبوب الكآبة والضجر. حكايات العقلاء في عيادة الطب النفسي. حبوب طرد الملل، حكايات مكسورات الفؤاد من الحب في مجلة لا في. جنون اللاجئين في بارك ماكسميليان.
خلص...لا أريد أكثر. هذه البشرية هي غائط كوني سقط من السماء في يوم ليس فيه غيم ولا مطر، فلماذا تسأل؟

كان محمود يقود سيارته لزيارة طبيبه في عيادة الطب النفسي في بولفار سيمون بوليفار. طرق بروكسل كانت ذلك اليوم الشتائي نظيفة ولامعة. غطى الشارع ثلج خفيف في الفجر غير أنه اختفى فجأة بعد أن نشرت الشمس الخجولة أشعتها الشاحبة. لكن البرد ما لبث أن اشتد بعد أن اختفت الشمس خلف الغيوم الكثيفة التي تتجمع في سماء بروكسل طوال العام من الظهيرة حتى أول ساعات العتمة. صورة محمود ظهرت في اليوم التالي في صحيفة المترو مقتولا في جادة واترلو.

كيف وصل إلى هذا المكان؟

كان من المفترض أن يكون ذلك اليوم في بولفار سيمون بوليفار في عيادة الطب النفسي وليس قرب محل أحذية مستعملة في جادة واترلو.

قال أحد أصدقائه:
أنه على الأرجح له عشيقة في ذلك المكان قد أخفى هذا الأمر عن زوجته، لكنه لا يعرف إن كان له علاقة بالأمر أم أن مقتله هو انتحار محض.
*
"قبل عامين بدأت مشكلة محمود..." قالت زوجته. وشرحت بعينين دامعتين المشكلة وهي تمسك في يدها منديلا.
"بدأت مشكلة محمود من لحظة تركه لعمله، في محل بيتزا نابولي في البورت دو نامور بسبب مشاجرة مع عنصري بلجيكي ومتطرف"
ولكن ضابط الشرطة باترك لم يفهم من آن لم لم يجد محمود عملاً آخر فيما بعد، طالما هو ماهر، كما تقول، في صناعة البيتزا وكأنه إيطالي. ذلك أنه جلس في منزله في جادة إكسل، فترة طويلة عاطلاً عن العمل، ولكن في يوم من الأيام قرر إيجاد عمل آخر غير عمل البيتزا والتظاهر أمام الزبائن بأنه إيطالي، ولفظ كلمات مثل بلا سنيوريتا، وبون بتيتو، وبيني، وهو أن يكون مشغل أو مصلح مكائن.
فأخذ يقرأ في موسوعة سميكة عن المكائن وطرق تشغيلها، اشترته له زوجته آن من مكتبة تروبيزم في غاليري دي رين. وفي لحظة حينما كان يقرأ في الموسوعة في شرفة منزله، صرخ محمود على آن وكب قدح النبيذ الأحمر على قميصه الأبيض...قال لها أنه شعر كما لو أن ماكنة ضخمة، ليست بلدوزر بالتحديد بل ماكنة بين الكرين لرفع الانقاض وماكنة تصنيع شفرات الحلاقة، تستولي على عقله.
بعد أيام تطور الأمر كثيراً، بدأت هذه الماكنة تزوده بصور اوتوماتيكية هو لا يريد أن يراها، مشاهد متنوعة ومتناقضة، أبشع ما فيها هي صور حروب قديمة، صور موتى، مذابح تاريخية، جرائم قتل عادية، مشاهد تعذيب، بل كل مصائب هذه الدنيا.
*
محمود لاجيء عراقي، شاب في الثلاثين من عمره، قدم على بروكسل منذ عشرة أعوام. عبر بحر الموت بقارب، ومشى في أوربا مطارداً من بلد إلى بلد حتى وصل إلى هنا. بعد عام درس الفلامانية وتعلمها، ثم عمل أربعة أعوام في مطعم للبيتزا تملكه سيدة إيطالية من نابولي اسمها ايزابيلا، وتزوج من آن، فتاة جميلة من كوترك، حياته معها هادئة من دون مشاكل أبدا، حتى شعر أنه نسي ماضيه تماما ولم يعد ذاته اللاجئ الذي جاء إلى بلجيكا.
لكن النقطة الفاصلة التي حدثت في حياته وغيرت مجراها هي بعد أن ترك عمله، شعر حينها أنه منبوذ على نحو ما، وفي ساعات الخلوة الطويلة حيث يبقى وحده في المنزل تهيمن عليه مشاهد وصور تزدحم في عقله حتى تشله، صور لا يريد أن يراها لكن ماكنة توليد الصور لا يمكنه إيقافها.
في صباح أحد الأيام وهو يستلم مع إعلانات دليز ونشرات الدعاية المجانية، التي توضع غصباً عنه في صندوق بريده الموضوع في الباب، رسالة من التأمين الصحي، تقدم له خيارات المصحات النفسية التي يمكن أن يتعالج بها، أخذ الرجل يتأمل وجهه في المرآة.
إنه من لحم ودم وليس من حديد ورصاص، فقد قبض عليه يوماً في بغداد مع مجموعة من الأصدقاء من قبل مليشيات دينية وحكم عليهم بالموت، أطلق الشباب الملتحون الذين يرتدون ملابس كاكية ومرقطة الرصاص عليهم، قتل الآخرون لكنه نجا فلم تصبه رصاصة، وسقط معهم وضرجته دماءهم فتظاهر بالموت، يوما كاملا أمضاه مع جثث أصدقائه لا تصدر منه أية حركة، حتى شعر لأيام أنه ميت. أصحابه شبان يشبهونه بكل شيء تقريباً، لديهم أمهات وآباء مثله، لكنه إلى الآن لا يعرف إن كانوا سيسامحونه أم لا لأنه

وحده الذي نجا من المذبحة. لدى محمود أفكار غامضة عن التسامح والنسيان لكنها لا تفسر قسوة الحرب ولا الموت العبثي لشبان يقتلون لأنهم بلا لحى. وآخرون يتحولون إلى قتلة بمجرد أن يطلقوا لحاهم ويرتدوا ملابس كاكية أو مرقطة.
"لا أحد يختار حياته بنفسه .."قال له الطبيب النفسي الذي يرتدي نظارة ويشبه باستور.
"هذا أكيد" قال محمود للدكتور البلجيكي "ولكن هل لديك أجوبة أخرى، أجوبة من تلك التي لا أعرفها؟"
بعدها توقف تماماً عن الذهاب إلى المصحة.
قالت له زوجته أنه لا يحتاجها طالما هو يضاجعها ثلاثة أيام على الأقل في الأسبوع، وهو طيب وودود معها والجيران يحبونه فهم لم يشعروا بأي من أعراضه.
زوجته البلجيكية جميلة، أكبر منه بخمسة أعوام. لديها شقة واسعة في جادة آكت في السان جوس، تعمل مساعدة اجتماعية في مركز رعاية اللاجئين في الشاتو، وهناك تعرفت عليه. غير أنهما مختلفان في شيء واحد فقط، هي تريد إنجاب طفل بسرعة، قبل وصولها إلى الأربعين. لكن محمود يرفض الفكرة بحزم وصرامة نادرتين. فهو لا يعتقدها هذه الأيام صائبة، وأراد أن يفهمها بكل قوة أن أوربا مقبلة على أزمة اقتصادية مروعة، أكبر من تلك التي حدثت في الثلاثينات، هذا ما أخبرته به ماكنة الصور التي تستحوذ على رأسه، وسوف يتحول الأوربيون إلى فقراء ومشردين، وهو لهذا السبب لا يريد لطفله مصيرا أسوأ من مصيره عندما كان في العراق.
أو سيصدم الأرض جرم سماوي كبير، أكبر من الأرض بتسع مرات، ويحيلها إلى شظايا متطايرة في الفضاء، ويتحول الابن إلى قطعة لحم مع نيازك تائهة وهائمة في المجرات. وهو أمر مؤكد لا بفعل ماكنة الصورة التي تعمل ليل نهار في رأسه، إنما قرأ أشياء كثيرة في الصحف، وهو يرتعد، عن خوف العلماء من أجرام سماوية تقترب من كوكب الأرض، لكنها تغير مسارها بأعجوبة، فتفلت البشرية من دمار محتوم.
أو سيحكم النازيون مجدداً في أوربا، وسوف يشوون أبناء العرب بالأفران، فاليمين المتطرف يصعد كل يوم درجة في الحياة الاجتماعية والسياسية ولن يكون بمنأى في يوم ما عن السلطة.
*
زوجته آن لا توافقه على أفكاره السوداوية المروعة، فهي أوربية مؤمنة أن العلم والعقلانية هي ضمان السلام في أوربا لقرون قادمة، وهي سعيدة بحياتها المستقرة، حيث تستقل كل صباح المترو أو الترام في البوتانك وتذهب إلى العمل، تشبع ولعها بالتنورات القصيرة والوشوم، والبرسنغ، وتضع عقدا على عنقها اشتراه لها من المبلغ الذي يحصل عليه كلاجيء من المساعدات الاجتماعية. وهو عبارة عن مصباح علاء الدين يذكرها دائما بالمكان الذي جاء زوجها منه. وهي تتعلم العربية في المساء وتستمع إلى الأغاني الشرقية كي تصبح قريبة أكثر منه.
لكن كل هذه السعادات الصغيرة في منزله لم تنجه من التفكير بموت تراجيدي محتوم هنا في بلجيكا بواحدة من هذه الاحتمالات: إما بالموت بسبب حادث اصطدام مع سائق سكير ومتهور.
أو من سكين تشهر عليه في الظلام من يميني وهو عائد في الليل سكراناً إلى منزله.
أو من مهاجر لم يجد طريقة أخرى لشراء المخدرات غير تسليب مهاجر مثله.
أو الموت بسبب اصطدام أحد الأجرام بالأرض.
*
تستبد به بعض الأحيان رغبة وحشية في أن يملك منظاراً ويراقب الأجرام السماوية التي تبعد آلاف السنوات الضوئية، لئلا يفلت منها جرم أرعن ويصطدم بالأرض. أن يرصد كل حركة غريبة من كائنات فضائية تراقب الأرض، وستهبط في يوم على سطحه وتستغل البشر، وتقلب أنهاره إلى أنهار حمراء من دم متجمد.
في يوم أخبر آن أنه رأى عشرة كائنات غريبة من نافذته، أحدهم يقف عند منزل راق على مقربة من موقف المترو. رأسه على هيئة كأس، ويصدر الأوامر. وهنالك عمارة زجاجية شفافة كما لو صنعت من الماء. قربها منازل طابوقية وبارات فارغة. الكائنات العشرة تتحرك وفق تعليمات صارمة. تقترب من المترو لكنها لا تدخل، ثم تحصل على الأوامر فتغزو العمارات الشفافة المصنوعة من الماء. وتخرج منها بأسلحة فتاكة لتنفذ الأوامر، لقد عرف ذلك اليوم بصورة لا لبس فيها، طبيعة التهديد بانقراض الكائن البشري، أو حقيقة اختفاء هذه الأرض.
-إلى هذا القدر أن الأرض مهم وجودها؟ حالة شعرية هذه الأرض إنها استعارة مثل الاستعارات في اللغة أكثر مما هي حقيقة.
هكذا كان يفكر محمود وهو يقضي ليلة رعب. زوجته تنام في الحجرة وهو في الصالة يفتح النافذة يدخن ويراقب الفضاء لئلا يقفز أحد الكائنات من أعلى ويخرب سلام الأرض.
ولكن من أين للأرض هذا السلام؟
إنها اكتشاف بسيط في مجرة ضخمة، هي محض شعوذة من ذرات وألكترونات، والأخطار المحتملة هي بسبب هذه العشوائية التي انجمعت فيها مكوناتها. فالذعر من زوالها ليس مبرراً. إنها تراب قادم من مروحة الأفكار التي شغلتها ماكنة صور الموت والحرب في رأس محمود لا أكثر.
لقد شعر محمود بالتعب. بالاستنزاف. لا يمكنه أن ينظر بصفاء وهدوء إلى هذا العالم. الأصوات في الخارج تزعجه، صوت عجلات المتورسكلات في الشارع، صوت الترام قرب منزله وهو يقرع الجرس، صوت محرك الطائرات القادمة من مطار زفتان في سماء بروكسل، ماذا يصنع؟ هل يصرخ، يبكي، هل يقبل أيدي المارة الذين يتكلمون بجهاز الموبايل ويصدرون أصواتا مزعجة، أن يتوقفوا عن الضجيج؟
في يوم كان يتوسل طبيبه النفسي بمذلة أن يوقف هذه الماكنة التي في رأسه، أن يعطلها. فهي تنتج صوراً غريبة لا رابط بينها، ماكنة لا تتوقف عن إنتاج جمل عشوائية عن الموت والحياة. عن الجنس والبوليت. عن نشرات الدعاية لدليز والآلدي ورسائل محلية السان جوس. عن الغوفر والقمل. عن السكارى في محطة النورد وصورة رئيس المحلية في الانتخابات. عن بيرة اللف ووشم يميني متطرف مكتوب فيه Ik haat Arabieren. صور متناقضة في رأسه لا يعرف كيف يوقفها. يشعر ساعات بأنه تحول إلى دجاجة حية وضعت في فرن. أو قرد يضربونه على مؤخرته بلوح من الخشب المسمر.
قال له الطبيب مرة:

-العالم ليس رموزا. العالم حقائق.. كان المطر ينهمر في الخارج. الطبيب يبتسم وفي يده خوخة ناضجة. العالم ليس رموزا، هذا العالم حقائق مشفرة تنتجها ماكنة ضخمة في رأس الله، واحدة مصغرة منها في رأس محمود. هذا هو العالم. خدعنا الفلاسفة والأطباء الذين يعتقدون أنهم يعرفون كل شيء. هنالك إله مصنوع من رأس مذهب ومؤخرة فضية يتحكم في هذا العالم.
يصبح محمود أحيانا عقلانيا مثل آن، وأحيانا أخرى تسيطر عليه ماكنة لتصنيع الصور المرعبة فيغرق هذا العالم بالحروب والفيضانات والزلازل.
ضحك محمود، لقد عرف أنه ليس وحده المذعور في هذا العالم، إنما أكثر الناس مثله، يعيشون عيشة الفئران، يعيشون في مطاردة دائمة وبكوابيس شريرة ومشاهد مرعبة. لا جمعيات الدفاع عن المذعورين يمكنها أن تهدئ روعهم ولا صلوات الأمهات الطيبات القلب، ولا المعافون أصحاب الأمزجة الهادئة يخلصونهم مما هم عليه، حتى النوم لم يعد مأمناً مريحاً من كوارث النهار، فقد تخللته الكوابيس والأحلام المزعجة، لا شرب الكحول ولا الحبوب المهدئة قادرة أن تعفيه من الخوف من كل حركة في الشارع، حتى القطة التي تبحوش في كيس الزبالة وهو عائد إلى المنزل، تثير رعبه.
قال لآن: لا أستطيع أن أوقف هذه الآلة التي تولد الصور في رأسي، إنها تتدفق مثل ماء ساخن وتغزو عقلي، أقف على ناصية الطريق مثل موزع الصحف المجانية تختفي الوجوه وتظهر محلها أنياب ودبابيس وأظافر، تتحول وجوه البشر إلى وجوه حيوانات، حتى المؤخرات الجميلة تنفتح مثل بالوعة كي تبتلعني. هذه الماكنة لن يوقفها شيء إلا إطلاقة مسدس ويتم تعطيلها.
*
تقرير الشرطة يقول أنه أثناء ذهابه إلى عيادة الطب النفسي في بوليفار سيمون بوليفار حرف سيارته وذهب لصديق يقطن في جادة واترلو لاستعارة مسدس منه، توقف بسيارته في زاوية بعيدة من محل بيع أحذية مستعملة تديره عجوز بلغارية تعيش في بروكسل منذ عشرين عاماً، وأطلق النار على رأسه.

قالت آن:
أنا أشك أن ينتحر محمود، إنه لا يؤذي أحداً، ولا يمكن أن يؤذي نفسه. على الأرجح أنه تعرض لحادث قتل من أحد العنصريين الذين كانوا يطاردونه.

كتب طبيبه النفسي على الملف:
أخيراً تمكن محمود من إيقاف ماكنة الصور في رأسه، من دون مساعدة، لقد أوقفها بنفسه. وأغلق الملف.

(c) Ali Bader, 2018